أدب الأطفال ومتغيرات العصر

الإنتاج الفكرى للطفل فى ضوء المتغيرات المحلية والعربية والدولية

أدب الأطفال ومتغيرات العصر
الإنتاج الفكرى للطفل
فى ضوء المتغيرات المحلية والعربية والدولية

أ.د.عطيات أبوالعينين

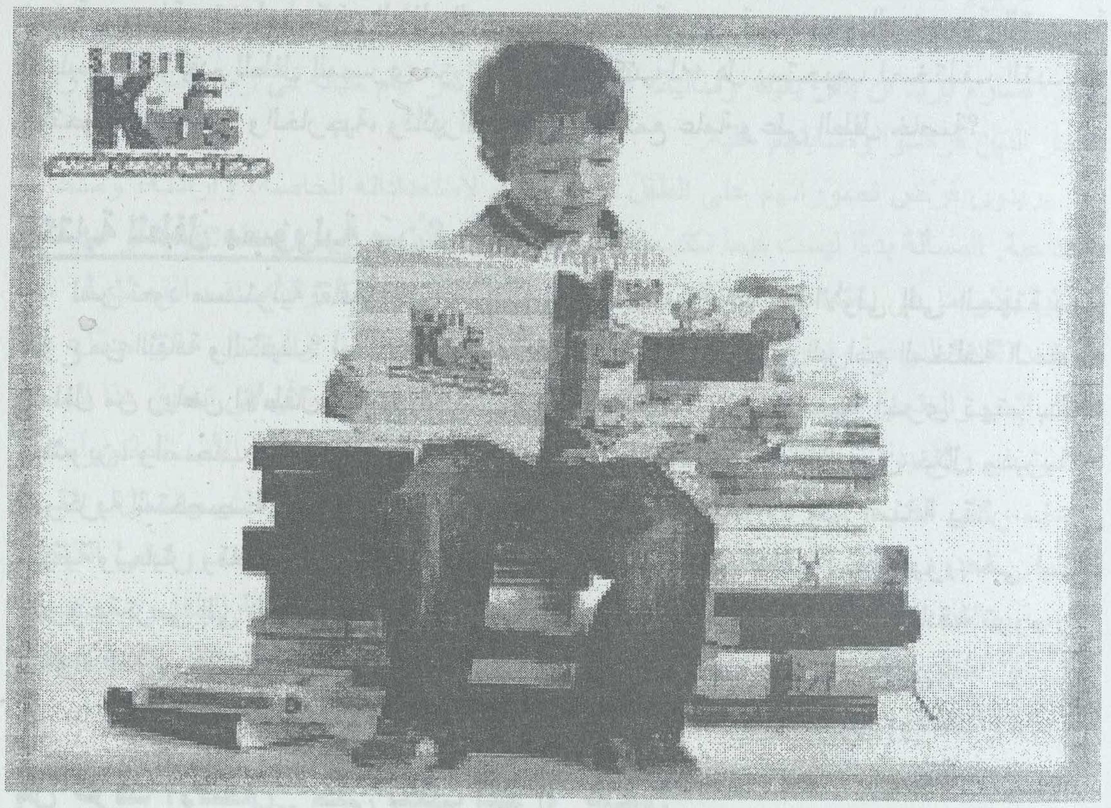

لاشك أن الكتابة للطفل موهبة وثقافة وممارسة، وتعد الكتابة للطفل من أعسر المهمات الإبداعية بالنظر إلى عالم الطفل، وما ينطوى عليه من خيال واسع تستدعى الدقة والتحرّى، وهناك من يجد المتعة والحميمية عندما يلج هذا الفضاء الإبداعى فى ثقافة الطفل إبداعًا وبحثًا ونقدًا إذا قارنا ذلك بمن يؤكدون عجزهم التام عن الكتابة للطفل.

إن الكتابة للطفل تطرح أسئلتها باعتداد وبإلحاح، من قبيل الجدّ والتدليل على أن الكتابات الموجّهة للطفل مطلوب منها التخصّص، وعدم الاستخفاف والتبسيط، أو من باب التسلية. فعالم الطفل فضاء من الخصائص والسمات، والشروط لا تُفتح أبوابها لكلّ من رغب فى ذلك؛ أى بمعنى آخر، الكتابة للطفل لها شروطها وقواعدها التى تراعى خصائص النموّ ومراحل هذا النمو فى كل مرحلة من مراحل الطفولة.. هذه المراحل التى تراعى نموّ الطفل النفسى والذهنى والعاطفى، والمستوى التحصيلى المعرفى، ومستوى مهارات اكتساب المعرفة كالقراءة والكتابة

لديه، ومختلف تفاعلات علاقاته بالأشياء، وبالعالم المحيط القريب والبعيد، وأمر الكتابة الموجّهة للطفل يطرح أيضًا مجموعة من التساؤلات المشروعة والمبرّرة...منها، أهناك ثقافة للطفل وأخرى لغيره ممن هم أكبر منه؟ وما المقصود بأدب الطفل؟ وما هى دلالات كلمة أدب؟ هل نعنى به المكتوب وحده، أم يدخل ضمنه المرئى والمسموع والأدب المصوّر؟ من هو الطفل الذى نروم الكتابة إليه؟ وهل هناك تخطيط تثقيفى مبرمج وفق أسس علمية، ووفق مراحل وفترات زمنية معروفة.. تخطيط يكوّن الطفل المصرى من جهة، ويدعّم جهود المؤسسة التربوية التعليمية؟ ما يُقدم للطفل المصرى من تثقيف، وما يُكتب له؛ هل يستجيب لمختلف التبدّلات والتحوّلات الداخلية والخارجية، وتأثيراتهما على المجتمع عامة وعلى الطفل خاصة؟

الكتابة للطفل مسؤولية مَنْ؟

لمَنْ تعود مسئولية ثقافة الطفل والكتابة فيها؟ هل تعود بالدرجة الأولى إلى المهتمّ بهذا النوع من الثقافة والتثقيف؟ أم أنها ترجع إلى مختلف الهياكل ومنفذى البرامج المختلفة الخاصة بالطفل من رياض الأطفال ومؤسسة تعليمية وأسرة، ومؤسسات مجتمعية أخرى تهتمّ بذلك، وناشرين، وأصحاب القرار، ومنجزى البرامج؟ أم أنها تعود لوزارة الثقافة من خلال مديرياتها المركزية المتخصصة، ومديرياتها الولائية، ودُور الثقافة، ومراكزه؟ هى أسئلة بقدر ما هى حقيقية ونُعايش وقائعها المؤسفة، فإنها مزعجة لأنها تشير إلى واقع لم يتغير.. هى أسئلة مشروعة ترمى إلى النهوض بواقع تثقيف الطفل المصرى، وتفعيل كتابة صادقة تروم رفعَ مستواه الفكرى والخلقى والجمالى.. أسئلة مزعجة ولكن علينا طرح السؤال الآتى :

هل عرفنا الأطفال.. حتى نكتب لهم أو عنهم؟

الطفل يأبى القيود وينفر من السلطة والتسلّط.. زمنه زمن الحرية.. فضاؤه غير منته. خياله جامح. الفضول سمته والاكتشاف الدائم حرفته. هو ابن السؤال الذى لا يتوقف. يخلق عوالمه الخاصة به دومًا. حتى وإن ألجمناه كعادتنا، ما يفتأ يخلق عوالمه، الطفل ابن السؤال، والثقافة العربية أميل إلى الخوف من السؤال، وتدخل فى طور من الارتياب منه عندما يطرحه طفل، فهى تنكر على الطفل حقه الطبيعى فى الحلم، وفى خلق عوالمه الخاصة به، وتتعامل معه بصفته ذاتًا قاصرة لا يحق لها الحلم، ولا يجوز لها التفكير وطرح السؤال. فطرح السؤال عفرتة، وشيْطنة، وقلة أدب. هو تحدّ للكبار وتجاوز للحدود. إنها ثقافة مجتمعات تخاف على أطفالها من تبعات طرْح الأسئلة، ولاسيّما الإناث. الطفل ابن الحرية والحرية سؤال واع ومسئولية، وثقافتنا تجنح إلى الخوف من الحرية.(1)

بتشاؤمية كبيرة هناك مَنْ يرى بأن الثقافة العربية لم تنتج إلى اليوم ثقافة للطفل عربية يُعتدّ

بها، لا لفقرٍ فى الإرث الثقافى والمصادر الضرورية لنشوء هذه الثقافة بما فى ذلك أدب الطفل، ولا لعجز فى المخيلة؛ فالعرب يتمتعون بخيالٍ خصْبٍ، ولا لقصور فى اللغة وضيق فى رحابتها، ولا لغياب الوعى بأهمية الابتكار، وأهمية الخلق الفنى؛ وإنما لأسباب أخرى قد يكون أهمّها إطلاق ضعْف التواصل بين الأجيال، وهشاشة العلاقة بين الكبار والصغار، بل وتصادمها المستمر زمكانيا، والجهل بعالم الطفولة، والتجاهل حتى ممّن بإمكانهم معرفتها والغوْص فى أعماقها وسبْر فضائها الحر الذى ينفر من القيود والتسلط والوصاية. انطلاقا من مجتمع أبوى مثالى صارم يريد أن يلقن يقينه ومثالياته الخاصة لطفل أكثر أيام حياته فى زمن آتٍ غير زمن الكبار الذين فرضوا وصايتهم عليه.

يريدون فرْض تصوّراتهم على الطفل دون احترام لاستعداداته الخاصة، وإرادته، وملكاته الإبداعية. المسألة بدءًا ليست فيما نكتب للأطفال أو نكتب عنهم، وليست أيضًا تثقيفية أو أدبية أو جمالية بقدْر ما هى اجتماعية فكرية انعكست على المفاهيم الجمالية والأهداف القصْدية، من أهداف الثقافة التوعية وتحرير العقل من كل القيود كيفما كان نوعها، والعمل على جعْل هذا العقل الحر والمتحرّر مبدعًا، مبتكرًا. إن الثقافة العربية لم تنجح حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف وفشلت فى رفع يد الأبوة الثقيلة عن الإنسان العربى صغيرًا وكبيرًا. خطاب الأب الحاكم، أحادى الصوت، كلى القدرة، العارف بكل شىء، راعى الرعية، حامى القيم والأوطان والمثل والقيم، وحارس الحدود والثغور، وواهب العطايا، ليس عجبًا لصاحب مثل هذه الصورة فى الذاكرة العربية بهالتها المقدّسة أن تحتلّ صورته النموذج المثالى فى الكتابة الموجّهة للطفل، من قِبَل كُتّاب عن حُسْن نية أو جهْل وتجاهل بالتغيرات، فنقلوا هذه الصورة ورسّخوها فى ذهن الطفل العربى، واستعادوا أعلام التراث البطولى العربى والإسلامى ليُسقطوها على الواقع الحديث، من خلال تركيب الصور القديمة داخل هالات جديدة. وغاب عنهم أن الطفل فى أكثر من مكان من العالم العربى كان أذكى منهم فتجاوزهم، متخذًا مناح أخرى فى إشباع حاجاته المعرفية والتثقيفية، ولو كانت مناح عرجاء. يستقيها من دور الشباب والمراكز الثقافية، ومن قاعات الإنترنت التجارية، ومن قاعات الألعاب الإلكترونية، ومن الحى والشارع بخاصّة وغيرها.

بالمقابل هناك من يرى أن ثقافة الطفل وتثقيفه موغلة فى التاريخ الإنسانى، ففى تراث البشرية الهائل ما يلفت نظر الباحث والدارس. لقد حرص أتباع جميع الديانات الوثنية منها والسماوية، والمحرّفة منها والصحيحة، على أن تقدم للطفل لونًا ما من ألوان الأدب يعبر عن الدين أو العقيدة، حدث ذلك فى العصور السحيقة، ويكاد يُجمع المؤرخون على أن أدب الطفل يوجد حيث توجد الطفولة، وهو جزء لا يتجزّأ عن باقى احتياجاتها المادية والنفسية والروحية، فكما يحتاج الطفل إلى الطعام والشراب، وإلى الرعاية والحنان، فإنه فى حاجة ماسّة إلى ما يُثرى فكره، ويُسْعد روحه ووجدانه. وإذا لم يستوف الطفل تلك الاحتياجات المادية والمعنوية، فسوف يكون عرضة للمعاناة والاضطراب؛ لأنها جزءٌ من فطرته، وقد كانت الأم من قديم الزمان تدرك

احتياجات طفلها بالفطرة، فتقدم له ما يرقه عنه، ويثرى خبرته، ويتواءم مع طبيعته.

بل إن بداية عهد أدب الأطفال الحديث افتتح صفحاته الأولى بقصص الأنبياء، والقصص التى وردت فى الكتب المقدّسة. ومعلوم أن العقيدة هى الأساس لبناء الكيان الروحى والفكرى للطفل، ومن ثمّة لابدّ وأن تبدأ فى وقت مبكر، ولو على سبيل التلقين والتبسيط، أو التعبير بالصور المعبّرة التى ترمز إلى شىء غير مرئى. هناك من يرى بأن كل أساليب التربية والتكوين ومصادر المعرفة ووسائطها المختلفة والتى توسّعت فى أيامنا هذه كلها تدخل تحت عنوان "أدب الطفل"، وهناك من يؤكد على أن أدب الطفل ما هو إلا عنصر أساسى فى ثقافة الطفل، يبدأ تثقيف الطفل وهو لم يُولد بعد. يبدأ بتثقيف أمه وأبيه، فليس الأب هو الذى ينمو جسديًا ويصير قادرًا على العمل والزواج والإنجاب وحسب. الأب الحقيقى مَنْ درس معنى الأبوة وعرف الطفولة وخصائصها، وعرف كيف يحسن تنشئة وتثقيف وتعليم ابنه، وما ينطبق على الأب ينطبق على الأم. فى التربية الحديثة وفلسفة التنشئة من العلماء من يطالب الآباء والأمهات بأن يحكوا ويحكين للأطفال قصصًا، وأن يُسْمعوهم موسيقى خفيفة، وأن يحدثوهم بحنّية وهم فى بطون أمهاتهم تمهيدًا ليوم الميلاد، وإطلاق الصرخة الأولى التى نردّ عليها بالأذان فى أذن الوليد كى ننبه حواسه ومشاعره، ومن ثمة نتابع معه فيما بعد التثقيف والتعليم من خلال المداعبة والحركة والصور والألوان.

المتغيرات المحلية والدولية

ولا يمكن الكتابة للطفل بمعزل عما يدور حولنا من متغيرات على مستوى التغيرات السياسية والإجتماعية والتاريخية، وأيضًا لا نستطيع أن نفصل هذه المتغيرات عما يحدث على المستويين : المحلى، والدولى بمتغيراتهم الكثيرة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو تاريخية، فأدب الأطفال هو جزء لا يتجزأ من حياتنا، وربما إذا اخترنا عملاً على أى مستوى من هذه المستويات ليس بالضرورة أن يقدم كل الأدباء الذين يكتبون للطفل هذه النوعية، وعندما حاولت عمل مسح لما كتب فى السنتين الماضيتين وهى ما يطلق عليها سياسيًا بفترة ربيع الثورات العربية والتى حدثت فيهما الكثير والكثير من الأحداث وسقوط شهداء وجرحى وقصص لبطولات، وأهم من ذلك سقوط النظام المصرى الذى ظل جاثمًا على نفوسنا ثلاثين سنة. لم أجد دور النشر مهتمة بتقديم هذه النوعية. لكنها مشغولة بحسابات أخرى الخط السياسى وهل ما قام به الشعب المصرى يعد ثورة أم لا؟ وهل من بدأها الشباب أم الكبار؟ وهل الشهداء يعدون شهداء ويمكن كتابة قصص بطولاتهم أم لا؟ هل نقدم هذه النوعية أم ننتظر؟ حتى ولو تقدم بها الكتاب، هل ستتماشى هذه الأعمال بالسياسات الحالية وما يدعون إليه من مفاهيم مختلفة.

يرى يعقوب الشارونى ثقافة الطفل من خلال رؤية مستقبلية، واجهت ثقافة الطفل تغيرات : ثقافة الحوار والمشاركة والإبداع بدلاً من أساليب الحفظ والتسلط والتلقين، وإعادة صياغة

الثقافات الموروثة بما يتمشى مع منجزات العصر مع اتضاح الدور الرئيس للحواس فى تنمية قدرات الأطفال خاصة صغارهم بدلاً من الاعتماد على الكلمة وحدها، ومنافسة الكمبيوتر والإنترنت للكتاب لما يتضمنه استخدامهما من تفاعل مستمر بين الشاشة والطفل، ومنافسة المجلة للكتاب حتى أصبح من اعتادوا من الأطفال على قراءة المجلات المخصصة لهم أضعاف من يقرأون الكتب الموجهة إليهم.

كما تنبه المجتمع إلى قضايا الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة من المعوقين جسميًا وعقليًا والأطفال فى ظروف خاصة مثل الطفل العامل وأطفال الشوارع والمرضى بأمراض مزمنة.

بالإضافة إلى تعاظم دور العلم فى حياتنا، وهو ما يحتم ابتكار الوسائل لتنمية التفكير العلمى والمعرفة العلمية خاصة لصغار الأطفال.

يضاف إلى هذا بروز الحاجة إلى التأكيد على قيم مجتمعية هامة مثل عدم التمييز بين أهمية أدوار الفتى والفتاة، وقبول الآخر، والحفاظ على البيئة، وتقوية الشعور بالانتماء إلى الوطن، وتأكيد قيمة الوقت والعمل، وتنمية روح الإبداع والابتكار، والاعتماد على النفس فى التعليم الذاتى المستمر فى عصر أصبحنا نسميه "عصر انفجار المعلومات" ولما كان كتاب الطفل ومجلاته من أهم الوسائل لتنمية مختلف جوانب الطفل وتثقيفه، فلابد أن يواجه بنجاح هذه المتغيرات والتحديات.

المعاصرة وأدب الطفل

يرى يعقوب الشارونى أن الاهتمام بالمعاصرة هام فى مجلات الأطفال، حتى تساعد الطفل أن يعيش أحداث عصره العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، على أن نقدم ذلك بأسلوب يتناسب مع قدرة الأطفال على الاستيعاب، خاصة عن طريق اختيار وصياغة الأخبار المعاصرة حول هذه الموضوعات.

علاوة على ابتكار أساليب جديدة لتقديم الثقافة والمعرفة العلمية، والاهتمام بتعريف الأطفال العرب بأدب الأطفال الإفريقى والآسيوى وأدب الأطفال فى أمريكا اللاتينية. فالمتأمل لمعظم ما نقدمه لأطفالنا من أدب أطفال غير عربى تتم ترجمته عن الإنجليزية وبعضه عن الفرنسية، وهذا أحد مخلفات عهود الاستعمار الغربى، التى أرادت ربطنا بالغرب دون غيره من ثقافات العالم وحضاراته. وفى ضوء المتغيرات العالمية لابد أن نعمل على انفتاح أطفالنا على مختلف ثقافات وحضارات العالم، حتى تكون لنا حرية اتخاذ القرار فى علاقاتنا الدولية.

إن علينا فى مجال ما نختاره لترجمته إلى أطفالنا العرب أن نهتم بأدب الأطفال الهندى والإفريقى والآسيوى وأدب أمريكا اللاتينية، وذلك للعمل على زيادة معرفة أطفالنا بمختلف ثقافات العالم، وهو ما يثير اهتمامهم فى مستقبل أيامهم بزيادة قدرتهم على تفهم ثقافات هذه الشعوب وحضاراتها، وبالتالى قدرتهم على التعامل معهم بنجاح.

أدب الخيال العلمي كمسايرة للتقدم العلمي الحديث وما يقدم للطفل

التكنولوجيا الحديثة واتساع فروع العلم وعدم ملاحقتنا لهذا التطور يجعلنا نسابق الزمن ويأتى دور الكتاب للسباق العلمى وربط العلم بالخيال فى سياق أدبى يتنبأ بالمستقبل فى ظل المعلومات العلمية المتاحة لنا أو التنبؤ بها.

ومن ناحيتى أرى أن هذا الأمر ليس قاصرًا على مجلات الطفل، لكن على الكتابة للطفل بكافة أنواعه، فلا يعقل أن نكون فى الألفية الثالثة والكتابة للطفل لا تستخدم التكنولوجيا الحديثة التى يستخدمها الأطفال أنفسهم من كمبيوتر وإنترنت، ونخترق مجال الخيال العلمى الذى يفرد له العالم صفحات عديدة، بل تتيح لكتابه مكانة رفيعة وتجعلم كمستشارين للدولة؛ لأنهم يستطيعون قراءة المستقبل على العكس مما يحدث فى بلادنا مازلنا نتناقش فى مسميات لم تعد موجودة كالآتى : هل هناك أدب يسمى بالخيال العلمى؟ إن القصص التى تتناول هذا تذكره ذكرًا لكن الطفل اليوم يتعلم اللغة ويقرأ ويلعب من خلال الإنترنت، لكنه لا يقرأ القصص التى تقدم لأنه يشعر ببعدها عنه وعدم تفاعله معها. من المفترض أن نكتب عن المرحلة ثم نترك غيرنا لتقييمها. وإذا استعرضنا أعمال الكتاب الذين كتبوا للطفل بدءًا من كامل الكيلانى نجد أن المتغيرات التاريخية فازت بنصيب الأسد فى الكتابة، ورغم أن الإنسان كائن اجتماعى إلا أن الكتابة للطفل فى هذا المجال تنحى الطفل عن الإبداع المقدم.

لكننا نجد كاتب الأطفال "يعقوب الشارونى" ينحو هذا المنحى فى أعماله "حدث فى بيت الطالبات" ومشكلة الفتاة التى تثبت لوالدها ومجتمعها أنها قادرة على تحمل المسئولية وقادرة على حماية نفسها والوقوف بجانب والدها فى وقت الضيق دون الرضوخ لعادات المجتمع وتقاليده التى تقضى بتزويجها ابن عمها أو تقع فريسة للقيل والقال.

كذلك "أبناء فى العاصفة" وسأتوقف عند الأخيرة بالقراءة المتعمقة لإضافة بعد جديد فى الكتابة للطفل وإبراز الطفل كعنصر فاعل ومشارك وليس متفرجًا يراقب الأحداث دون أن يشارك فيها، وينتظر من الكبار التصرف إما بالانفصال أو بالعودة بعد ذوبان الخلاف أو التحمل من أجل الصغار، والاهتمام بالمشاكل اليومية التى تواجه الأطفال، خاصة فى علاقتهم بالوالدين والإخوة مثل مواجهة تسلط الأسرة ورفضها الحوار مع الأطفال وعدم استشارة الوالدين أو أحدهما لرأى الأسرة سواء الزوجة أو الأطفال، واتخاذ العقاب أسلوبًا مستمرًا لقمع الأطفال، والتفرقة بين الولد والبنت، وغير ذلك من القضايا والمواقف التى تواجه الأطفال فى حياتهم العائلية واليومية. ولقد ربط هنا يعقوب الشارونى المتغيرات الاجتماعية بالمتغيرات السياسية أو ربط المحلى بالعالمى من خلال تعرض حياة الأسرة الصغيرة وأعمال المهندس شاكر لأزمة مالية نتيجة للخلافات السياسية بين الدول، وقد ترتب عليها أزمة صحية.

قراءة فى "أبناء فى العاصفة"

تأليف يعقوب الشاروني .. رسوم رباب الحاكم

يحسب للعمل أنه تطرق لحياة الأسرة وخلافاتها الدقيقة، وفتح مجالاً جديدًا لتدخل الأبناء فى منطقة محرمة يحرمها الكبار على الصغار واعتبارها ضربًا من "قلة الأدب"، وربما تنحو الباحثة إلى القراءة المتعمقة فى أعمال أدبية قدمت للطفل، ونحن نفتقد لهذه الرؤى والقراءات وكأن هذا اللون غير جدير بوجود نقاد يفردون لهذه الأعمال صفحات وصفحات. وإذا بدأنا بالعناوين التى اختارها يعقوب الشارونى هذه العبقرية التى تفهم الطفل وتقدم الجديد دائمًا وتوصى الأجيال الجديدة بذلك، وربما من الأمانة العلمية أن أذكر أن رغبتى فى تقديم قراءات فى أدب الأطفال جاءت بناء على توصية من الرائد الكبير فى ندوة بأتيليه القاهرة لتكريمه على مشواره الأدبى ورحلة عطائه، وذكر : "أننا نحتاج لنقاد لأدب الأطفال حتى ولو هاجمونا". ورغم أنى كاتبة لأدب الطفل وبخاصة مرحلة الناشئة إلا أن القراءة المتعمقة تفتح أمامنا المجال لرؤية متغيرات جديدة للكتابة للطفل.

الفصل الأول أنا المدير هنا وليست الست

يقدم لنا يعقوب الشارونى هنا فى هذا الفصل الذى يثير جدلاً حول تلك النزعة الذكورية التى غلفت بيئتنا الشرقية، والتى عانت منها المرأة، طوال العهود الماضية وحتى الآن، بل على العكس نجد أن هذه النزعة تعود وبقوة نتيجة لوجود تيارات دينية تتعامل مع المرأة وكأنها متاع، ويعودون بها إلى القرون الأولى لمجرد إزاحتها من الطريق. وهنا المدير الذى يتحدث بهذه النزعة الذكورية هو فى نفس الوقت زوج السيدة شريفة والتى تشاركه العمل فى مصنعه.

فالمهندس "شاكر عبدالفضيل" المدير برغم خبرته فى مجاله وتميزه فيه، إلا أنه تدخل فى مجال غير تخصصه، وحاول من خلال منافسته لزوجته ورغبته فى إبعادها من المصنع أن ينحيها جانبًا، ورغم تفوق الزوجة والتى هى زميلته وشريكته فى العمل وفى منزل الزوجية، فرغم موهبتها فى اختيار الألوان المناسبة والموديلات الجذابة، والتى حققت لهما ولمصنعهما الكثير والكثير من الأرباح إلا أنه يجازف بكل هذا، ويحاول إبعادها بالتعدى على تخصصها، وبالتالى تنسحب خارجة من المصنع.

ويختار العنوان التالى للفصل الثانى من الرواية

اندفعت خارجة من المصنع : يستطيع يعقوب الشارونى خلق الصراع منذ بداية الرواية المقدمة للطفل ويأتى بوجهة نظر لهما.. **فالزوج مثلا ص6 "لماذا تحرضين العمال على مخالفة أوامرى"** ويحرص هنا الكاتب أن يبين أن الباشمهندس دخل منفعلاً وبالتالى كانت الزوجة أو

زميلته "شريفة" فى العمل أو شريكته فى مثل انفعاله.. ليبين للقارئ أن الانفعال ينتقل بالتبعية أو عندما تعالج الأمر بعصبية وانفعال من أمامك يستثار، وأنه كان من الطبيعى أن تنفعل الزوجة أو ترد بانفعال : قائلة ص7 "ولما تصدر الأوامر قبل الرجوع إلى.. أنا المصممة فلا تتدخل فى عملى".

"ارتفع صوته صائحًا أنا المدير فلا تفسدى العمل بإلغاء ما لا تفهمين من أوامرى" وهنا يحتدم الخلاف بينهما لتبين له أنها هى التى تفهم فى عملها التصميم واختيار الألوان المناسبة.. لكنه يصر على رأيه.. كما أنه يشتت نشاطه فى أكثر من محل، بينما هى ترى أن هذه المحلات تبتلع الأرباح، فيرد عليها ص 7 **"اتساع المصنع هو الضمان الوحيد للمستقبل بينما لا تفكرين أنت إلا فى تجميد أرباحنا لشراء أرض وبناء عمارة".**

وهددها أنه يمكن أن يجد غيرها بمن يفهمون فى تصميم الملابس، مما أدى إلى انفعالها وتركها لما تعمل وتخرج غاضبة من المصنع، ويحتدم الخلاف بينها.

عنوان الفصل الثالث "إنها تغلق كل الطرق"

ويقوم "يعقوب الشارونى" بتحليل الموقف فيبدأ الفصل الثالث بأنها امتنعت عن الذهاب للمصنع ويأتى بالمبرر، لأنه لم يطلب منها أيضًا أن تعاود الذهاب، وأنه تناسى أنه ألقى على مسامعها أن لن يعجز بالإتيان بمن يتفوق عليها فى التصميم.. توقفت فى المنزل أيضًا عن مبادلته الحديث، وتركت له الغرفة وشاركت الأبناء غرفتهما لتغلقها على نفسها أثناء تواجده بالنهار، وبقيت معهما ليلاً فى غرفتهما.

هنا أدخل الكاتب "يعقوب الشارونى" الأولاد فى الصراع؛ لأنهما طبعيًا متواجدون فى هذا الصراع، لكن الأعمال التى تقدم للطفل كانت ومازالت تتجنب أن تقحم الطفل فى مشكلات الكبار أو بمعنى أدق تدخلهم والحديث مع الكبار عن هذه المشاكل، فيسمعون الخلاف ويعانون من تصاعد الأمر بين الوالدين كل هذا فى صمت ظاهرى.. لكنهم فى الحقيقة متواجدون رغما عنهم فى محيط الشجار والعراك وغيرهم يقترح حلولاً ظاهرية أو بالأحرى مثالية كأن يقولون : لابد ألا يشعر الأطفال بمشاكل الآباء، وهذا الرأى عمليًا فى الواقع لا يتحقق لتواجد الأبناء فى محيط الحدث.. وعندما اختار الكاتب أعمار "نوال" الابنة الكبرى 13 عامًا و"تامر"12 عامًا، ونجد أن الأبناء يشعرون بالتغير فى المناخ الأسرى وتعكير صفو **الأسرة فيتساءلون هل فعلا ما أغضب الأم؟**

ورغم أن الأم أعربت للابنة عن عدم مسئوليتها عما هى فيه من معاناة، وبالرغم من توقع الابنة رد الأم إلا أنها كانت تتوقع أن تثق فيها وتعتبرها صديقة لها فتروى لها ما يضايقها وتطرق "نوال"برفق الباب لتتعرف على ما يضايق الأم إلا أن محاولاتها باءت بالفشل.. هنا نجد الصراع مشتعلا والأمر يتطور وإشراك الأبناء يأتى تدريجيًا فى العمل ليختار عنوانًا لفصل آخر

الفصل الرابع "المنافسة المشتعلة"

يظن الكبار دائمًا أن الأبناء أصغر من أن يستوعبوا، كذلك كان الحال مع "نوال" ظنت أن "تامرًا" صغير على أن يهتم بهذه المشاكل التى تحدث بين والديهما.. فلقد شعرت "نوال" أن المنافسة مشتعلة داخل الأسرة أو على وجه الدقة بين والديهما ص11. وهما واقفان فى انتظار سيارة المدرسة قال لها تامر "بابا وماما متخاصمان" لم تستطع نوال أن ترد عليه، ولكن ظهر الاكتئاب واضحًا على وجهها، وبكت نوال ولم يستطع تامر أن يكمل الحديث مع أخته.

وهنا ينسى الزوجان فى بعض الأحيان أنهما لابد وأن يتكاملا، يجتهدان معًا وكل منهما يعمل ما لديه لإنجاح مشروع الأسرة.

الفصل الخامس : هل نكتفي بالفرجة؟

بدأ الكاتب بتساؤل من خلال عنوان الفصل وكان تامر يفكر بشكل إيجابى، وعلى الفور اقترح على أخته "نوال" الا يعودا مع سيارة المدرسة.. ص13 قال "تامر" نعود إلى البيت مشيًا أريد أن أتحدث معك في الطريق"

دهشة "نوال" تتبلور فى أن أخيها الأصغر عنها بعامٍ فهم المشكلة بين والديهما، ليس هذا فقط، وإنما هو على هذه الدرجة من الوعى والنضج.. تحدثا عن أن الخلافات وصلت إلى أشدها فى المصنع وحديث العمال، بل لم تقف الخلافات حتى المصنع، وإنما وصلت إلى البيت.. وطرح تامر سؤالاً هامًا هل نكتفى بالفرجة؟ وهنا يدل هذا التساؤل على رغبته فى التدخل بشكل إيجابى لصالح الأسرة.. بل المبادرة وعدم الانتظار من أن يأتى الحل من خارجهما وينحون أنفسهم جانبًا..

حاولت "نوال" أن تسرد لتامر فشل محاولاتها مع والدتها وماذا يمكن للصغار أن يقدما للكبار خصوصًا أنهما لن يسمحا لهما بتغيير شىء من شئونهما.. فقال لها : " إن كنت أنت كبيرة فى سنك فأنا كبير بعقلى".

وهنا يسوق الكاتب حكمة مهمة جدًا أو استدلال منطقي أن الكبر والنضج لا يقاس بالسن وإنما بالعقل وبالتفكير.. ص14 "اغتاظت "نوال" فقالت فى مهارة وسخرية، متأثرة فى أسلوبها بوالدتها شريفة " أنت تشبه بابا تقول دائمًا كلامًا كبيرًا أكبر من قدرتك كثيرًا".

وهنا يسوق لنا الكاتب دلالات فى التربية فمن جانب القدوة لا يليق بالأم أن تعطى هذه الصورة عن الوالد.. لأن الفتاة أو الفتى يشب فى الحياة وتأخذ الفتاة موقفًا سلبيًا من كل الرجال نتيجة لهذه الوجهة من النظر التى تكونت على مر السنين فى بيت الأسرة، والأبناء يهتزون نفسيًا فيكون تكوينهم وتنشئتهم غير سوية إذا ما فقد أحد الوالدين دوره.

ونجد هنا ص 14 فى شىء من الجدة رد عليها تامر "لا تقولى هذا على بابا، إنه ينفذ دائمًا ما يعتزم القيام به" هنا ينحاز الولد إلى والده، نجد هنا مفارقة يسوقها الكاتب دون تعليق.. فى موقف

سابق بين الوالد تصاعد الخلاف فكان الزوج ثائرًا، وكذلك ثارت الأم نتيجة تناول الأمر بعصبية فلم يحاول أى منهما تهدئة الحال، بينما نجد الحال بين الابنة نوال وأخيها تامر.. ص14 "سكتت نوال كى لا يتحول الحديث بينهما إلى "خناقة"، وفكر تامر وقال : "لماذا لا يقترح عليهما اقتراحًا يحل ما بينهما من خصام؟"

التفكير الإيجابى

عندما اقترحت نوال حلاً قررت أن تعتكف فى الغرفة وتمتنع عن الذهاب إلى المدرسة حتى تشعر والديها أنها مريضة بسبب خلافاتهما فيتراجعا.. لكنها تجد تعليق أخيها كتفكير ناقد لما يرى أمامه من سلوك. ص14 فى سخرية تعالى صوت " تامر أنت نسخة من أمنا". وراح يتساءل معها : هل هذا هو كل ما تقدرين عليه : البكاء وحبس نفسك فى غرفتك؟

وهنا يسوق لنا الكاتب على لسان الأخ والأخت أحدهما تفكيره سلبى والآخر إيجابى ولكنهما يتبادلان الرأى والمشورة.. ونجد ص14 يأتى الحل على لسان تامر الابن الأصغر "قال نقترح على ماما أن تفتح محلاً لحسابها لبيع ما تصممه من ملابس فتشغل نفسها بما تحب وتبتعد مؤقتًا عن مصنع بابا".

وإن كنت آخذ على الكاتب أنه جاء بالحلول العملية والإيجابية كلها على لسان الفتى، وهنا لم تغير النظرة المتدنية للفتاة أو للمرأة إنها لا حيلة لها إلا البكاء حتى أن تامرًا يرى أمه وأخته بأنهما لا حيلة لهما ويقول لأخته نوال : ص15 ثار تامر "هكذا أنت دائما لا تقدمين اقتراحات عملية وتهاجمين كل اقتراح أقوله دون أن تفكرى فيه لحظة واحدة. ويقررا معًا عرض اقتراح المحل على والدهما قبل عرضه على والدتهما.. وهنا نجد بالرغم من اعتراض نوال على أخيها تامر إلا أنها تسلم باقتراحه فى النهاية وكنت أتمنى لو ساق الكاتب ربما بالتناوب على لسان الأخ والأخت، ربما كل مرة أحدهما يخطىء والآخر يصيب، ولكننا هنا أمام اتجاه سلبى للأم بالانسحاب والبكاء، وكذلك اقتراح الفتاة جاء مؤيدًا لهذا، حتى أن الابن وصلته هذه المشاعر والأفكار.

عنوان الفصل السادس : خمس دقائق من وقته

قرر كل من نوال وتامر زيارة والدهما فى المكتب، ولكنه كان يعاملهما كأنهما طفلان صغيران لم يكن قد تنبه إلى أن ما يسمعانه ويشاهدانه من خلافات ومعارك بينه وبين أمهما قد ترك فيهما أعمق الآثار وأشدها، فقفز بإدراكهما سنوات إلى الأمام، لذلك فإنه عندما أعاد السماعة إلى مكانها أخيرًا .. فوجىء بنوال وتامر لم يتحركا من مكانهما".

وتوقع أن الوالدة هى التى أرسلتهما وسألهما، ولكنهما أجاباه بأنهما فى حاجة لخمس دقائق

من وقته.. ص 18 "بسرعة جاء رد الوالد فى مهمة قاطعة ليمنعهما من الاسترسال فى أى حديث فى البيت" لم يتصور أنه يمكن أن يشغلهما شىء له أهمية تحتاج إلى أن يعطيهما لحظات من وقت عمله الذى يراه ثمينًا جدًا، وعاد يكرر عبارته" فى البيت وليس هنا "أنا مشغول".

عندما دخل عم يوسف الذى يعمل بالمصنع وهو يحمل مجموعة من الأقمشة ذات الألوان المتنافرة حاول أن يثير حديثًا أمام الأولاد لعل المياه تعود إلى مجاريها وقال بصراحة : "كل التصميمات الجديدة ينقصها ذوق الست شريفة".

حاول الأولاد عرض اقتراحهم، وقال والدهما : "لو كنت أنا الذى اقترحت هذا الاقتراح لكانت أمكما قد تصورت أننى أريد أن أبعدها نهائيًا عن المصانع فيجعلها العناد ترفضه".

هنا من المفترض أن هذه الكلمات التى تحمل صفات غير محببة لا تذكر أمام الأولاد لأن هذا ينتقل بالتبعية فى الحكم على الأم، قال تامر : "سنقنعها نحن بقبول الاقتراح، ولن نخبرها بأننا تحدثنا معك بشأنه" لم يسمعا من والدهما أى تعليق؛ لأنه كان قلقا يفكر فى بشاعة ألوان التصميمات التى عرضها عليه يوسف منذ لحظات.

العلاقة بين الأب والطفل

تلعب العلاقة بين الأب والطفل دورًا هامًا فى شخصية الطفل، وفى التكوين النفسى حيث يشير الشناوى زيدان (1981) إلى أن الاتصال النفسى الدائم بين الأبناء والآباء أمر ضرورى وهام لتكيف الأبناء، إذ عن طريق هذه الاتصال يحس الأبناء بمدى اهتمام الآباء بهم ورعايتهم لهم، وهذا الاتصال النفسى أيضًا من الأمور التى يسفر عنها إشاعة الاستقرار النفسى والأمن فى حياة الأبناء؛ ولذلك فإن دور الأب فى الأسرة وفى تنشئة الأبناء لا يقل أهمية عن دور الأم. كذلك أشار إلى أن محك نجاح الأب فى تكوين شخصية أبنائه هو مقدار نجاحه فى كسب ثقتهم ومودتهم بالدرجة التى تجعلهم يتخذون منه صديقا يلجؤون إليه كلما صادفتهم المشاكل، وأعيتهم الحيل، ويعد عكس هذا الشعور من جانب الابن تجاه والديه وهروبه منه من مظاهر فشل هذا الأب فى القيام بدوره القيادى فى الأسرة وعجزه عن تحقيق الاتصال النفسى الطيب بينه وبين ابنه. (الشناوى عبدالمنعم الشناوى ، 1981 : 49-50).

عنوان الفصل السابع : لن يعطينى ما أحتاج إليه

كانت شريفة متيقنة أنه لن يستغنى عن تصميماتها، وقالت لنوال وتامر ص20 : "هل رأيتما نماذج الثياب التى أفرزتها الأيدى الحالية من الذوق لمن جاء بهن للحلول مكانى". ص20 لم ييأس تامر، سنقول له إن أرباح محلك ستحمينا نحن الأبناء من أى تقلبات للسوق قد تصيب

مصانعه، إنه لن يرفض ما دامت اقتراحاتنا لا تخرج عن دائرة التجارة، وتجارة ملابس الأطفال على وجه خاص".

بينما كانت دهشة الأم وهى تستمع إلى ما يقوله تامر الصغير بل بهرها أنهما يحاولان اقتراح الحلول للتخفيف من الضغوط على نفسيتهما، والتى تسببت فيها هى ووالدهما. "وهنا نأتى لعنوان الفصل الذى يعتبر مفتاح السر فى كل فصل أو العقدة الجزئية" لن يعطينى والدكما ما أحتاج إليه من مال ليرى متجرى الجديد النور، لقد تعاونا معًا سنوات متعددة، لم أفكر أن هذا له وذاك لى، وكلما تحققت أرباح يصر على إعادة استخدامها فى توسعة مصانعه وزيادة عدد عماله ومتاجره رافضًا أن يخصص مالاً نبنى به بيتًا ننتقل إليه من هذه الشقة التى ضاقت علينا بعد أن كبرتما وأصبح كل واحد منكما فى حاجة إلى غرفة مستقلة".

يأتى الرد هنا من نوال لأول مرة منذ سير الأحداث بحل إيجابى ص 21، أسرعت نوال تعلن فى اندفاع "شهادات الاستثمار التى أهديتماها لى أنت وبابا فى أعياد ميلادى بلغت قيمتها الآن خمسين ألف جنيه خذيها كلها نساهم بها فى إنشاء محلك "ابتسمت شريفة لأول مرة منذ أن انقطعت عن الذهاب إلى مصنع زوجها وهى تحتضن تامر ونوال فى إعزاز لشعورها بمدى فاعلية أبنائها ومحاولتهما حل المشكلة من أجل عودة استقرار الأسرة.. وما زاد سعادتها عندما شعرت أن تامر يفكر كما يفكر الكبار فى حل المشكلة، فعندما قالت لهما : إن المقدم الذى يجب أن يدفع لمحل لا يقل عن ربع مليون جنيه قال لها : "ليس ضروريًا أن يكون محلاً متسعًا يكفى أن يكون فى موقع جيد.. لم تتوقع الأم أن زوجها سيوافق على هذا ولكن قالت لهما : "أهم من كل شىء لابد أن تقنعا والدكما أن يكون متجرى وكل حساباتى مستقلة تمامًا ومنفصلة عن حسابات مصنعه ومحلاته، وأن يكون كل شىء فيه باسمى وعلى مسئوليتى الشخصية وحدى؛ كى لا أتأثر في المستقبل بأى إجراء قد يتخذه أحد البنوك أو بعض من الدائنين عند مصانعه أو متاجره، وفى النهاية كل مالى سيكون هو لكما".

الفصل السابع : سبب وجع الدماغ

يضع دائمًا يعقوب الشارونى يده على العناوين كمفاتيح لتحريك الأحداث، وكأنه يحلل أجزاء المشكلة إلى مشكلات صغيرة تتبدى لنا من خلال عناوين الفصول. فى هذا الفصل يرجع الوالد المهندس شاكر إلى زوجته شريفة وحدها يحملها كل الخطأ دون إشراك نفسه، وهذا هو سبب المشكلة.

الخطوة الأولى

وكأن اقتراح الأولاد قد حرك المياه الراكدة فى المشكلة، ففى تلك الليلة عاد الزوج ليجد أن

زوجته قد أعدت العشاء منذ اعتكفت فى حجرة الأبناء بعد توقفها عن الذهاب إلى المصنع.

وإن كنت هنا أتحفظ على أننا نرسى دعائم التربية والواجبات الاجتماعية ومن واجب الزوجة حتى فى أوقات الخصام أو الخلاف أن تقوم بواجباتها المنزلية تجاه أسرتها فهذا شيء والخلاف شيء آخر هو خلاف فى الرأى على مشكلة معينة.. حتى لا تشب الفتاة مثلاً على ذلك عندما تكبر وتصبح زوجة مسئولة، لقد كانت الزوجة تختفى فى غرفتها قبل أن يأتى زوجها حتى لا يراها، وكذلك فكرت نوال أن تتصرف عندما حاولت أن تجد حلاً.. لكن هنا ليس من القدوة أن تمتنع عن المبادرة للصلح مع زوجها حيث كانت تريد أن تستأنف الحوار فى سبيل إنجاح مشروع محلها الذى اقترحه الأبناء، لكنها فى نفس الوقت لا تريد أن تقوم هى بكل الخطوات الأولى لإزالة الجفاء الذى سيطر على علاقتها بزوجها، حيث كانت تنتظر أن يتوجه إليها شاكر ولو بكلمة واحدة.

هنا بين الزوجين يجب أن يتعلم الأطفال من خلال سلوك الوالدين أنه ليس من العيب أو المخزى أن يبدأ أيهما بالحديث صحيح، من المفترض أن من أخطأ عليه أن يبادر بالصلح، لكن على كل منهما أن يسعى للصلح.. فنحن نرى دمار الكثير من الأسر تتحطم نتيجة للعناد، وكل طرف يتمسك أن يكون الآخر هو البادئ بالصلح.

الفصل الثامن : انقلب الحال

هنا العنوان أيضًا يسير فى اتجاه مفتاح جديد من المفاتيح التى يعطيها لنا يعقوب الشارونى هنا أكثر من حال ص 27 فالحال بين الزوجين "ارتفع رنين جرس التليفون فى البيت كانت شريفة قد امتنعت عن الرد على المكالمات التليفونية، لكنها هذه المرة رفعت السماعة وقالت عندما عرفت صوت المتحدث: "أنا شريفة يا شاكر" قال : "أرسلى الأولاد" اعتبر شاكر أنه وفق فى تربية الأولاد دونها من خلال الطريقة التى حاولا بها إصلاح الخلاف بين والديهما وكأنهما يفكران بطريقة الكبار.. لكنه لم يتطرق ذهنه إلا الاتجاه السلبى أو الأثر السلبى على نفسية الصغيرين نتيجة خلافه مع أمهما، وهمس لنفسه : "لقد كبرا وأصبحا على استعداد لتحمل المسئولية" ثم ضحك وهو يسخر من نفسه قائلاً : مسئولية الصغار عن إصلاح أحوال الآباء والأمهات، لقد انقلب الحال، لكن لا بأس".

فى هذا الفصل أتى يعقوب الشارونى بالأضداد، ولكن المهندس شاكر نسى شيئًا هامًا بما أنه يفكر دائمًا فى اتجاه واحد فقط أنه لم يربِ وحده الأولاد حتى يشبوا على النضج، بل هما مشتركان فى تربيتهما سواء الجانب السلبى أو الإيجابى وهذا دور هام فى تربية الأبناء.

ويذكر فايز قنطار (1992) أنه بالرغم من أن الأم تحتل مركزًا كبيرًا هامًا فى تطور السلوك عند الطفل، إلا أن الأب يمكن أن يسهم فى ذلك خصوصًا مع تزايد اهتمام الآباء بشئون الطفل، ويتفاوت اهتمام الأب بشئون الطفل من مجتمع لآخر، ويتأثر هذا الاهتمام تأثرًا بالغًا

بالثقافة الاجتماعية السائدة والعادات والتقاليد. (فايز قنطار ، 1992 : 418).

لقد كانت علاقة الأب وتفاعله بأطفاله مهملة إلى وقت قريب من الباحثين علمًا بأن دور الأب لا يقل عن دور الأم، فيبدأ الأب بالمشاركة الفعالة فى تربية الطفل منذ الولادة، وذلك بسبب عمل الأم وخروجها من بيتها فسمحت للأب بالاشتراك بطريقة أكثر من متساوية فى العناية اليومية بالأطفال، وأصبحت ظاهرة تربية الآباء لأطفالهم الصغار سائدة بصورة كافية وتسمح ببحوث نظامية عن تأثير الآباء فى نمو شخصية أطفالهم وأظهرت النتائج أن علاقات التعلق والحب المبكرة تكون مع الأب بالإضافة إلى الأم، خاصة عندما يكون لهم اتصال منظم ومتكرر منذ الميلاد بالطفل، فالأب يصبح نموذجًا للطفل يحتذى به ويحاكيه. (أحمد اسماعيل، 1993 : 38-39).

وهكذا يتضح أهمية العلاقة بين الأب والابن فى شخصية الأبناء. وترى الباحثة أن على الأب أن يحرص من خلال علاقته مع طفله أن يحاول كسبه وتقريبه منه، وذلك عن طريق قضاء الأب أطول فترة ممكنة مع الطفل، وذلك حتى ينهل من حنانه وعطفه، وفى الوقت نفسه يكتسب الكثير من خبرات وتجارب أبيه، ولا بأس أن يتبسط الوالد مع طفله ويداعبه ويلاطفه فى النكتة ويبادله الحديث شريطة أن يبقى شعور الاحترام والهيبة هو السائد بين الأب وطفله، وأن يظل هناك حاجز يمنع الطفل من الاستهتار بالقيم والعادات المتبعة، ومن التعاون فى احترام حقوق الأب.

كما ترى (سهير كامل شحاته 2002) أنه بالرغم من كل هذا التأكيد على أهمية دور الأب وإسهاماته ومدى تأثيره على نمو الأطفال، وبالرغم من اهتمام الباحثين فى السنوات الأخيرة بدور الأب أنه لايزال يعامله على أنه عضو مساعد بدلاً من معاملته كراع أول، وأن تأثير الأب يجب أن يفهم فى إطار الوحدة الأسرية؛ وذلك لأنه يؤثر فى تطور الطفل ونموه بطريقتين هما : طريقة مباشرة، وذلك من خلال العلاقة المباشرة بين الأب والطفل، فإذا كانت هذه العلاقة إيجابية ساعد ذلك على نمو الطفل وعلى توافقه، أما اذا كانت هذه العلاقة سلبية أدى ذلك الى اضطراب نمو الطفل وسوء توافقه، والطريقة الثانية هى طريقة غير مباشرة وذلك من خلال علاقة الأب بالأم، حيث إن الأب يمكنه أن يوفر للأم (الزوجة) دعمًا عاطفيًا، وذلك ينعكس على علاقة الأم بطفلها وتفاعلها، وهذا بلاشك يؤثر على نمو الطفل وتوافقه. {سهير كامل أحمد شحاته سليمان: 2002، 112 - 113}.

الفصل التاسع : سعادة غير حقيقية

نجد اختيار الكاتب لهذا العنوان الخاص بالفصل، والذى يجمع كل أطراف الرواية لهذه السعادة غير الحقيقية، فالمهندس شاكر يستعد للقاء نوال وتامر فى المكتب، ويحاول أن يعرف

منهما من وراء اقتراح محل زوجته شريفة، ويعرف من نوال أنه تامر.. ص 26 نظر إليه والده فى تظاهر بالإعجاب الممزوج بقليل من السخرية "أصبحت رجلاً يا تامر، تفكر فى عالم العلاقات العامة والتجارة"، ضحك "تامر" وهو يتجاهل السخرية وتمسك بالإعجاب وقال : "البركة فيك يا بابا الذى يعيش معك يتعلم الكثير".

هنا ربما جعل كاتبنا يعقوب الشارونى أن تامر نضج نضجًا كبيرًا حتى أنه يتخير الكلام الذى يؤذى مشاعره من والده ونظرات السخرية أو الاستخفاف به؛ لأنه يراه صغيرًا.. همس شاكر لنفسه : "طبعا تعلمت منى كيف تفهم الأمور المتعلقة بالتجارة والصناعة، وعرفت أيضًا كيف تتوتر العلاقات بين الوالدين بسبب المنافسة وتضارب طموح الأب مع طموح الأم".

لكنه سرعان ما أزاح عن تفكيره هذه الخواطر التى يصارح نفسه بها، وأعلن لتامر وعلى وجهه شبه ابتسامة " يمكنك أن تحمل أنت وأختك أخبارًا طيبة لماما".

هنا دائمًا المهندس شاكر يدين زوجته فقط، فهو لم يحاول أن يستفيد من طموح الزوجة لسعادة الأسرة.. بل تطور الطموح بينهما ليسبب مشكلة.

سعدت نوال بالخبر، واشترط الوالد أن يخرج مع شريفة زوجته للعشاء وكذلك الأولاد.

ويختتم الفصل بأن هذه السعادة التى أحس بها تامر ونوال فى ذلك المساء لم تدم.

الفصل العاشر : أسباب المشاكل

وجد تامر والدته عصبية جدًا فى محلها الجديد؛ وذلك بسبب اكتشافها أن زوجها يقلد تصميماتها ويبيعها رخيصة الثمن، أما هى فتبيعها غالية لأنها تستخدم خامات غالية الثمن، ولقد اشتكى لها زبون من ذلك، فزاد ذلك من عصبيتها.

الفصل الحادى عشر : السلام النفسي لتامر ونوال

ص 32 تأكد الأبناء أن العواصف لن تتوقف أبدًا، وستظل تهب بعنف على بيتهم، واشتد الشجار بعد المواجهة بين شريفة وشاكر نتيجة لمواجهته بتقليده لتصميماتها، ورغم تدخل الأولاد لتهدئة الأمر لكن دون جدوى.

إن التوافق النفسى للأبناء هو الدليل الفعلى على استقرارهم الداخلى وهذا الاستقرار يعتمد بشكل كبير على ترابط الاسرة وثباتها سواء كان فى صورة توافق بين الزوجين أو فى اتفاقهما على اختيار الأسلوب الأمثل فى تربية الابناء أو كليهما، فالابن المتوافق نفسيًا ناجح فى حياته ومتوازن فى تعاملاته، بينما نجد الابن غير المتوافق نفسيًا على العكس من ذلك تمامًا.

مفهوم التوافق النفسى للأبناء

التوافق هو علاقة تقوم على الانسجام مع البيئة، تسخر فيها إمكانيات الفرد وقدراته لتحقيق

معظم وأهم متطلباته الجسمية والاجتماعية (وولمان ، 1989 : 9) والمقصود بالتوافق هو التحرر من توتر الحاجة، والشعور بالارتياح بعد تحقيق الهدف (محمد عودة ، كمال مرسى ، 1994 ، 119) والتوافق النفسى يتضمن إشباع حاجات الفرد ودوافعه بصورة لا تتعارض مع معايير المجتمع وقيمه {فرج طه : 1993 ، 259ص}.

وتعرف سهير كامل 2002 التوافق إجرائيًا بأنه : هو تكيف الابن مع البيئة المحيطة به وشعوره بالتجاوب مع الأفراد الذين يتعاملون معه، بحيث لا يحدث صدام فى الرغبات أو فى أساليب التعبير عن المشاعر؛ مما يؤدى فى النهاية إلى الشعور بالارتياح وكذلك الرضا بوجه عام. {سهير كامل أحمد شحاته سليمان : 2002، ص25}.

الفصل الثانى عشر : الطريق الشائكة

ازداد القلق لدى نوال، وحاول تامر التخفيف عنها، ولكنه لم يعلم، ولقد زار تامر عم يوسف وعرف أنهم بالفعل يقلدون تصميمات والدته، واستطاع أن يعرف من عم يوسف أنه يمكن للوالد أن يطرق مجال آخر ليس له علاقة بملابس البنات.

ص 35 أضاف عم يوسف فى هدوء لتأكيد "إما أن تعود مدام شريفة لتعمل مع الباشمهندس وإما أن يغير الباشمهندس وإنتاجه إلى شىء آخر غير فساتين البنات، وليس هناك طريق ثالث".

الفصل الثالث عشر : لا يشعران بالأثر

كان تامر ونوال فى حيرة من أمرهما بسبب التأرجح بين الأب والأم يحاولان الإصلاح بينهما دون جدوى.. ذهب تامر لوالدته وهو يقول لها ص 36 : "هل هناك وسيلة ترضيك يمكن أن تتعاونى بها مع بابا يا ماما مع احتفاظك بمحلك هنا؟ ولكنها انفجرت تصرخ بما يملأ نفسها من ثورة.

ص 36 "قلت أبتعد عنه فى كل مجالات العمل لكى تنقطع أسباب الخلافات من جذورها، لكنه يصر على ملاحقتى "وأعربت لأولادها أن التصميمات لها تأخذ كل وقتها لأنها لكى تبقى فى السوق تحتاج للتجديد المستمر" حتى عندما قال تامر إن والده فى الفترة الأخيرة انخفضت مكاسبه.

ص 37 اندفعت شريفة تقول بسرعة وفى تعبير واضح عن شعور خفى بالانتصار : ولكى يعرف قيمتى "ورفضت أى تعاون معه، ولكن تامر ينهى الفصل وهو يقول لنفسه : للأسف والدى ووالدتى لا يشعران بالأثر الذى تتركه خلافاتهما فى نفوسنا" فدائمًا ما ينهى يعقوب الشارونى فى الفصل بعنوان يجيب على السؤال الذى طرحه أو التساؤلات التى أثارها العنوان.

الفصل الرابع عشر : حيرة العاجز

بعد كل المساعى التى حاولها الأبناء لحل مشكلة والديهما، أو بالأحرى مشكلة الأسرة، لأنهما يشعران بالضرر ص 38 فى إحباط همس تامر لأخته نوال وهما عائدان إلى البيت : "والدتنا حريصة على أن تثبت لوالدنا أنها انتصرت فى المنافسة بمحلها الصغير".

ص39 صاحت نوال تخالف تامر وربما هنا ثانى مرة تجيب نوال برد فعل إيجابى : "بل هى حريصة فقط على نجاح مشروع محلها الجديد".

الفصل الخامس عشر : معلومات جديدة مدهشة

فى هذا الفصل يتوصل تامر ونوال من خلال عم يوسف أن والدهما سيتاجر فى البنطلونات الخاصة بالأولاد عن طريق تاجر يدعى مرتجى الدرمللى لتصديرها للخارج.

الفصل السادس عشر : فكرة جنونية

وهنا يعرض تامر فكرة مجنونة على والده، ولكن االملاحظ أن الابتكار فى التفكير والمبادرة كانت من طرف تامر وكانت نوال تساهم على استحياء، وهنا لم تتغير وجهة النظر التى حاول الكاتب أن يوصلها عن الفتيات، كان تامر ونوال قد بذرا الفكرة للوالد يعمل فى صنف البنطلونات الخاصة بالأولاد وتدفقت الأرباح على المهندس شاكر وتخلص من معظم محلات البيع القطاعى واحتفظ بمحلين فقط واستراح من مراجعة حسابات 19 محلاً ومن مشاكل عمالها وموظفيها، كما تخلص من مواجهة نتائج سوء التصميمات التى لا ذوق فيها ولا ابتكار، واقتصر دوره على تصنيع نفس تصميم القميص والبنطلون، ونفس الأقمشة والألوان.

لكنه نسى أنه لم يكن لديه أى رصيد احتياطى يمكن له أن يواجه به مفاجآت السوق العنيفة غير المتوقعة التى قد تحدث لأسباب لا يمكن حسابها مسبقا، وبدأ يستعد لافتتاح مصنعه الثانى.. أما شريفة فقد تدفقت عليها الأرباح من محلها الوحيد الصغير، واشترت أرضًا وبدأت فى تحقيق حلمها القديم بإقامة فيللا من ثلاثة طوابق ضمانًا لمستقبل أولادها.

الفصل السابع عشر : الكارثة

توقفت أعمال مصانع شاكر نتيجة لخلاف سياسى بين البلدين، واجتاح فزع حقيقى عقل وأعصاب شاكر وهو عاجز عن مقاومة الانهيار لتوقف أعقبه أيضًا أية تحويلات مالية لحقوقهم من الخارج، فتذكر شاكر أقساط الديون للبنوك ومرتبات العمال والموظفين والإيجار والمصروفات الثابتة للمصانع من كهرباء وتليفونات وإيجارات فى بداية كل شهر.

الفصل الثامن عشر : أزمة قلبية

أصيب شاكر بأزمة قلبية، وأسرعت شريفة بنقله إلى أقرب مستشفى، وأصر تامر ونوال على مرافقته.. وتناوب الجميع على خدمة الوالد.

قالت شريفة : ركز والدك كل أعماله فى نوع واحد من الإنتاج ومع تاجر ومصدر واحد، الذى يريد التوسع فى أعماله كما فعل أبوك لابد من تنويع إنتاجه حتى إذا أصابت كارثة أو صدمة أحد المنتجات استطاعت البقية أن تسنده.. إلى أن يستعيد السوق عافيته ونشاطه.. كما عرضت أن يعرض المصنع الجديد فورًا للبيع لسداد ديونه، وأن يقلل من مصروفاته الشهرية الثابتة.. استفادت شريفة من حديثها مع تامر ابنها واستجابت لأن تضع تصميمات مصنع زوجها وتذكرت.. ص 51 أنه هو الذى اكتشف موهبتها، ولولاه ما عرف أحد تفوقها فى تصميم ملابس الأطفال.. استعادت ما تتناساه دائمًا من أنه هو الذى أشعل فيها شرارة الطموح.. ثم سألت نفسها : "كيف بدأ هذا التنافس بيننا بدلاً من التعاون؟ أدرك تامر أن والدته تفكر بشكل مختلف الآن.

ص 52 الخاتمة وضحكات من القلب

قالت نوال "أثناء عودتهم من المستشفى مع والدها : "هل رأيت يا سى بابا كيف أنك لا تستطيع الاستغناء عن ماما شوشو" وقال تامر فى مرح : وهل رأيت يا ست ماما كيف لا تستطيعين الاستغناء عن بابا شاكر".

ضحك الأربعة ضحكات من القلب، وفوجىء شاكر بأخبار جديدة يعلنها تامر ونوال عن أعظم أخبار البيت فى لهجة تعبر عن الانتصار، قال تامر :

ماما ستتوقف مؤقتًا عن عمليات بناء بيتنا الجديد، وتعطيك كل مدخراتها وما خصصته للبناء لسداد ديونك العاجلة إلى أن تبيع المصنع الثانى تبدأ من جديد فى فتح محلاتك المتعددة لبيع الفساتين بالقطاعى.. وأعلنت نوال فى فخر بوالدتها "ماما ستقدم إلى مصانعك تصميماتها الجديدة وتواصل تقديمها مادمت تعيد إليها ما ستقدمه لك الآن من أموال كانت قد خصصتها لتبنى لنا ولك بيتنا الجديد.. هتفت شريفة ضاحكة : ونستغنى عن استخدام تامر ونوال للتفاهم بينى وبينك ونعود إلى الاتصال المباشر.. ضحك الجميع ووعدهما والدهما بأن يتعلمان فى العطلة أصول الإدارة.

هنا نجح يعقوب الشارونى فى تقديم رواية لسن الناشئة هم بالفعل أبطالها، يشاركون فى الحدث، ويعالجون المشكلة بالرغم من تطورها ومع كل تطور يفكرون فى الحل حتى فى لحظات اليأس يحاولون.. إلا أن شخصية تامر هنا كانت أكثر إيجابية وأكثر نضجًا وأكثر الآراء صحة.. وكنت أتمنى أن يكون لتامر ونوال نفس الدور الإيجابى حتى لا نسعى لفكرة ترسيخ أن الذكر أذكى من الفتاة، خصوصًا أننا عانينا ومازلنا نعانى من هذا المجتمع الذكورى.. وربما عالج

يعقوب الشارونى هذا فى بيت الطالبات وهو متحمس لفكرة حق الفتاة وهدم فكرة الذكورية، إلا أن شخصية نوال جاءت عكس ذلك من وجهة نظرى.

كما كنت أتمنى أن نقضى على الفكرة الروتينية التى تسود مجتمعاتنا، فالفتى ينحاز لأبيه والفتاة تنحاز لأمها، إلا أن العمل فى مجمله بعيدًا عن الخيال يناقش مشكلة واقعية اجتماعية نلمسها فى بيوتنا وكيفية الحل والوصول إليه، وكيف تشارك الأسرة جميعها فى حل مشاكلها.

كذلك نجد هنا قلبًا للأوضاع المعتادة وفيه ابتكار وتوجيه نظرة الوالدين لأن ينظرا بعين ناضجة لأبنائهم وأن يقوم الأبناء بدور الكبار، أى ما يسمى بتبادل الأدوار.. علاوة على كيفية الاستفادة من الخبرات والاستشارات لمن حولنا ففى الغالب لم يكن المهندس شاكر (الوالد) لم يكن يستشير زوجته ولا أولاده، بينما الزوجة ربما أنصتت لابنها وابنتها، وجاءت النتيجة فى النهاية فى صالح الأسرة من استقرار وإيجاد حلول جديدة بأن نأخذها بعين الاعتبار.

المراجع

- أحمد اسماعيل ، 1993 : 38-39
- سهير كامل أحمد شحاته سليمان : التوافق الأسرى 2002، ص ص112-113.
- بعقوب الشارونى : بيت الطالبات، دار المعارف،2010
- يعقوب الشارونى : أبناء فى العاصفة، دار نهضة مصر،2011.
- نورى الجراح : ماذا نعرف عن الأطفال...ماذا نكتب لهم؟ كتاب العربى. العدد الخمسون / أكتوبر 2003نورى الجرّاح، المرجع السابق.ص 53

الملخص

أدب الأطفـــال ومتغيرات العصـــر الإنتاج الفكرى للطفل فى ضوء المتغيرات المحليـة والعربية والدوليـة د.عطيات أبوالعينين ويدور البحث عن ضرورة الإجابة عن عدة تساؤلات قبل الكتابة للطفل.